ليفيناس:
الأنثوي وفينومينولوجيا الإيروس

د. عبد القادر بودومة
استاد الفلسفة المعاصرة
جامعة تلمسان – الجزائر

ليفيناس: الفينومينولوجيا والإيتيقا:

يعتبر "ليفيناس" **LIVINAS (E) 1905-1995** الممثل الوحيد للحركة الفينومولوجية بفرنسا. إذ كان أول من ادخلها إلى الجامعات الفرنسية، ومكن فلاسفتها أمثال: سارتر (ج) **Sartre (J-P)** وميرلوبونتي (م) **Merleau - Ponty (M)** من الاضطلاع على فلسفة مؤسسها هوسيرل (1) **Husserl (E)** حيث تأثر ليفيناس شديد التأثر بفلسفة هذا الأخير. بالإضافة إلى الحضور البارز لفلسفة هيدغر م **Heidegger (M) (1889 - 1976)** لكن لم يكن هاجسه من وراء هذا التأثر البالغ تكرارا لفلسفة هذين العلمين وإنما توجه منذ بدء التواصل معهما بالقول بضرورة نقدهما. ومن تم تمكن ليفيناس من التأسيس لفلسفته المميزة لمساره الفكري، فكان يرتكز على تعميق تحليل دلالة العلاقة بالإنسان الأخر **L'autre homme**، ورأى في هذا التوجه المهمة الأساسية لكل تفلسف على الإطلاق. لم يكن بهمه إقامة النظريات الفلسفية للمعرفة وإنما سعى جاهدا لأجل فهم العلاقة مع الأخر باعتبارها العلاقة الأصيلة التي تقوم على أساسها كل العلاقات مع الوجود. المهم أن نكون قادرين على احترام غيرية الأخر، والكف عن اختزاله، وتبسيط دلالاته. ودلك بإفراغ محتواه داخل هوية الأنا. أي داخل المفاهيم وأنظمة المقولات التي كثيرا ما رأت فيها الفلسفات التقليدية

مهمتها الأساسية، معتقدة بأنها تمكنت من خلالها فهم علاقتها بالعالم فهما شاملا.

إن الذي يبدو أكثر أهمية بالنسبة إلى ليفيناس هو الانفتاح على علاقة التداوت **intersubjectivité** والعلاقة بالإنسان الأخر، حيث تتجلى الغيرية عبر وجهيهما**visage** ومن تم تمثلت الإتيقا **éthique** منذ أعماله المتقدمة باعتبارها الفلسفة الأولى. هنا تكمن المهمة الأساسية للفلسفة حيث ستبدأ مع ليفيناس بانجاز تمرين فلسفي مغاير غير ذلك الذي اعتادت عليه الفلسفات التقليدية منذ اللحظة الإغريقية إلى غاية هيدغر. ففي نقذه للشموليt**otalité** المفهوم المركزي القائم عليه عمله الرئيسي "الشمولي واللانهائي" **totalité et infini** الصادر سمنة **1961** ثمة إحالة إلى نقد شامل لتاريخ الفلسفة، تاريخ بإمكان تأويله إلى كمحاولة تركيب شمولي، كتبسيط واختزال لكل تجربة ولكل ما هو مدرك كشمولية حيث يلامس الوعي كلية العالم، ولا يترك من وراءه شيئا مع سعيها لامتصاص كل ما يتواجد خارجا، لتغدو تفكيرا مطلقا. إن وعي الذات هو في الوقت نفسه وعي للكل، لكن داخل هذا التوجه كان يوجد بعض الاحتجاجات على هكذا رؤية في عمق تاريخ الفلسفة بحيث يمكننا الإشارة إلى أن المسيرة الكبرى للفلسفة الغربية انتهت في الواقع إلى الفلسفة الهيغيلية، التي تظهر في حد ذاتها كنهاية واكتمال للفلسفة عينها.

إذا تجولنا بداخل الحضارة الغربية يقول ليفيناس: "فانه سنجد كل من الروحاني والعقلاني يتواجدان باستمرار داخل حركة المعرفة وبإمكاننا رد مثل هذا الحنين القائم بينهما إلى نزوعهما الشمولي، وكانتا أمام شوق نحو امتلاكهما على أساس انه ثم ضياع انعكس على رؤيتنا إلى الفكر عموما. فتم النظر إليه باعتباره خطيئة الروح في حين كانت الرؤية البانورامية للواقع هي تمثل الحقيقة."[1] هذا ما جعل ليفيناس يتوجه نحو القول أن التجربة المتعذر اختزالها مقيمة هناك **au-delà** بعيدا، وليس موجودة أبدا في التركيب المنجز من طرف الفكر. وإنما يحدث لها التواجد في الوجه لوجه **face a face** بين البشر وذلك داخل الاجتماعية **socialité** في دلالتها الأخلاقية. لكن لا يجب حسب ليفيناس فهم هذه الأخلاقية

1 Levinas (E): Ethique et Infini. Paris, Fayard, 1982- p. 79/80

بأنها جاءت لتعكس الطبقة الثانية أي تأتي بعد التأمل المجرد، وتحت عملية التـــنظير. للأخلاقية **moralité** استقلاليتها وأولوياتها لأنها الفلسفة الأولى، مجاوزة بذلك كل تفكير فلسفي قام يفلسف قضايا مرتبطة بالوجود. إن المتعذر عن التركيب أو لنقل اللا تركيب ينعكس بالضرورة على العلاقة القائمة بين البشر، فالوحدة الحقيقية أو الجمع الحق لن يكون جمعا تركيبيا، وإنما هو جمع ووجه لوجه.

لقد سعى ليفيناس من اجل إظهار فلسفته المتميزة باندفاعه الجدري نحو نقـــد الفينومينولوجيا الهوسرلية من جهة، والانطرولوجية الهيدغرية من جهـــة أخـــرى، ناظرا إليهما باعتبارهما من الفلسفات التي كرست الخط الميتافيزيقي التقليدي. لان فلسفة المعلمين (هوسرل وهيدغر) لم تخلص الآخر من تبعيته للـــ "عينه". ويعتـــبر المفهوم الشمولي من المفاهيم الدالة وبقوة على مثل هكـــذا تـــورط: إن مشـــروع الفلسفة الغربية يقول ليفيناس هو مشروع خاص بالرد إلى الشيء نفســـه، لأهـــا كانت تصر دائما على فهم كل شيء من خلال وصفه وهو في علاقة مع كل ذاتي الوضوح، سواء كان صورا أفلاطونية، أو جواهر أرسطية أو عقل الهـــي لفلســـفة العصور الوسطى أو مطلق هيغل أو مونادا ليتنـــز.

أقر الفلاسفة بمكانة الغيرية **altérité** بأنها تكمن خارج الكل -أي الشمولي- إلا أنهم كانوا يلحقون فهمها من خلال العلاقة مع الكل. إن مثل أفلاطـــون لهـــا علاقة وثيقة بالإشكال وتمكين لمادة أرسطو الأولية. وتتطلب الكائنـــات المتناهيـــة خالقا (إلها)، وتفهم نقائض هيغل دائما داخل بحث تركيبـــي لاحق.[1]

وعليه لا يمكننا والأمر على هذا الوضع الجزم مع الفلسفات التقليدية بالقدرة على إمكان وجود شيء ما قادر على استيعاب وبصورة فعلية كل الواقع وعلـــى الرغم من كون ليفيناس بأخذ بفينومينولوجيا هوسرل ممثلة في منهجا، إلا انه يرفض الأخذ بالرد **réduction** خاصة لحظة توجهه نحو الكشف عم يمكنه من استيعاب الآخر.

سيكون هدا الأخير مدركا حتى وإن كانت الحقيقة منظورا إليها باعتبارهـــا ذلك المتعذر عن التناهي. لكن على الرغم من ذلك سيبقى وعدا يترقـــب بلـــوغ

1 (هيننغ (ج) ليفيناس الكلي والأخر، ترجمة بدر مصطفى مجلة أوراق الفلسفية العدد 13- 2004 ص 384.

حقيقة أكثر اكتمالا وأكثر تطابقا، إذ مما لا شك فيه فان الكائن النهائي الذي نحن عليه لا يمكنه في نهاية المطاف إكمال مهمة المعرفة، في حين تتطلب فكرة اللانهائي حسب ليفيناس أن يكون الفكر لا عادل لان العلاقة مع اللانهائي لا تمثل المعرفة وإنما تعكس الرغبة، لقد حاولت يقول ليفيناس: "وصف الاختلاف الكامل بين الرغبة والحاجة وهذا بالنظر إلى الرغبة باعتبارها الحالة التي من الصعب أن تنتهي إلى الإشباع، وإنما تتغذى بكيفية أخرى من عوزها"[1].

من هذا المنطلق يمكننا القول أن الفلسفة لدى ليفيناس جديرة بان يطلق عليها اسم الفلسفة السائرة **la Philosophie en matche** إذ يبدو من الصعب التأكيد على الانتماء المطلق لليفيناس إلى الفينوومولوجيا على الرغم من وجود قراءات عديدة تؤكد ذلك. إلا أن الاتجاه المهيمن داخل فلسفته يختلف في الواقع كل الاختلاف عن الحركة الهوسرلية، بالإضافة إلى ذلك يعارض ليفيناس بصراحة هايدغر وانطولوجيته الأساسية، ونجده في الوقت ذاته يضع مسافة بينه وبين كل من سارتر وميرلوبونتي.

نحن نعلم أن لفضل يرجع إلى هوسيرل في إعلانه عن ميلاد الفينومينولوجيا **(1900–1901)** وربما سيكون من موقع تمييز وجاهة وأصالة الفلسفة الليفيناسية القول أن هوسيرل وهيدغر ينخرطان ضمن ما ينعته ميشال هنري **Michel Henry** بالفينومينولوجيا التاريخية **Ph. Historique**. ويعتبر هوسيرل الفيلسوف الذي اثر بصورة عميقة في ليفيناس إذ درس هذا الأخير ولمدة سنة بجامعة فرابيورغ. لكنه لم يشارك إلا في حلقة درس واحدة التي كانت تحت إشراف هوسيرل، فعلى الرغم من قلة متابعة ليفيناس لدروس هدا الأخير إلا أنه احتل المكانة الرفيعة لديه، اثر لم يمنع ليفيناس من التوجه نحو نقد الفلسفة أستاذه، حيث أعلن من البداية عن وجود بعض التحفظات التي أشار إليها في أطروحته الموسومة بـ نظرية الحدس في فلسفة هوسيرل. التي ناقشها سنة **1928** بجامعة ستراسبورغ، ومن أهم الاعتبارات النقدية المعتملة من طرف ليفيناس نجد على سبيل المثال لا الحصر[2]

1 Levinas (E): Ibid. p…

2 Strasse (S: Anti phénoménologique et phénoménologie dans la philosophie d'Emmanuel Levinas in revue philosophie de Louvain tome 75. N° 25. 1977

1. الاعتبار الخاص بمثالية النظرية المهيمنة على فكر هوسيرل مثالية فـــو-زمانيـــة **supra temporelle** التي اعتقد بصلاحيتها الأبدية، وتظهـــر مـــن خلالهـــا الفلسفة مستقلة، بعيدة كل البعد عن وضعية الإنسان التاريخية. ومنه سيكون هوسيرل قد أنجز نوع من التفريق والقطع مع الوجود العيني للإنسان مع زمانه وحياته الاجتماعية وكان لحظتها النموذج الهندسي المهيمن على مثل هكـــذا رؤية من خلال الكيفية التي ندرك بواسطتها الحقيقـــة وتعـــود تحديـــدا إلى أفلاطون وإلى العقلانيون.
2. الاعتبار الذي يضع النقد موضعا آخر بحيث يحيلنا إلى تفكير وعقلانية الـــرد الفينومولوجي الترنسندنتالي، وتمثل عقلانية هذا الأخير النقطة الثانيـــة الـــتي مكنت ليفينا صنت التوجه بالنقد إلى هوسيرل. إذ من خلال هذه الميـــزة لا نتمكن من الوصول إلى تغيير وبصورة جذرية موقعنا تجاه الواقع وتجاه العـــالم عموما. وبموجب أسبقية وأولوية النظرية لم يتمكن هوسيرل من طرح السؤال معرفة كيفية التي نجد من خلالها حيادية حياتنا. "لحظتها ســـتعرف الفلســـفة بدؤها مع الرد باعتباره الفعل الذي نرى من خلاله حياتنا في كل خصوصيتها العينة ن وذلك بداخل المكان الذي لا تتواجد فيه، هنا يكمن امتياز البحوث المنطقية الهوسيرلية لكن إذا نظرنا بعمق إلى هذه التأكيدات المنجـــزة داخـــل فلسفة هوسيرل والتي ترى في الرد السبيل الوحيد الذي يمنح لنا إمكان التوغل إلى الفينومينولوجيا فان مثل هكذا وجهة تحتاج هي الأخرى إلى إمعان النظر الفكري[1].

إن الفينومولوجيا هي أكثر من فلسفة في الوعي، أو في المعرفة فهي لم تعرف بدؤها إلا عندما عصفت الأزمة على العلوم وعلى الفلسفات الأوروبية. لهذا سيجد المشروع الهوسيرلي يضع نفسه موضع المعالج للازمة، أزمة سادت مـــن **1840** إلى **1935** حيث كان من غير المعقول لحظتها الوقوف موقفا سلبيا تجاهها. فراح جيل بأكمله من الفلاسفة يسعون من اجل البحث عن الحلول المناســـبة. مـــنطلقهم في دلك مسلمة مفادها أن أزمة هي فبل كل شيء أزمة ميتودولوجية. أزمة مرتبطـــة

1 Strasse (S): Ibid. P

على الخصوص بمناهج العلوم، فنظرة بسيطة على المناخ العلمي والثقافي اللذان عاصرهما هوسيرل يتبين لنا انه لم يكن مترددا في تقديم أبحاثه المنطقية في مشروعه التمهيدي والذي كتبه سنة **1913** بأنها العمل الفاتحة **œuvre percée**[1].

إن قراءة متمعنة لنصوص ليفيناس الأولى التي جسدها في أطروحته: نظرية الحدس في فلسفة هوسيرل (**1928**) تظهر أن اكتشاف فينومولوجيا قصدية الوعي سمحت بمنح الامتياز للممارسة على النظرية، بالكيفية التي يصير من خلالها الواقع معطي للذات العارفة. لكن معطى مباشرة من دون وسائط مع ضمان الأرضية الموضوعية المنخرطة داخل الوجداني **l'effective**. فالنظرة العامة التي يوجهها ليفيناس إلى الفينومولوجية تبرز من الوهلة الأولى أن المقاربة الهوسرلية تبدو متمكنة من معرفة وضعية العيني. هذا ما يقوي مجددا الفكرة القائلة بعدم انفصال الفكر عن الحياة. وتلعب الوظيفة الإحالية إلى الحياة دورا أساسيا في النطاق الذي يغدو فيه كل إتصال بموضوع متمثل **représentant** يرتبط بلزوم هذا الأخير أي التمثل، وثمة إلزامية الظهور أمام الوعي. طبعا لا ينطبق هذا المبدأ الفينومولوجي على إنعطاء المواضيع الحسية وذلك من خلال الأفعال الإدراكية والحسية فحسب وإنما تشمل حتى الامتدادات لقصود الدلالة المتوجهة أو المحمولة على المواضيع التخيلية[2].

إن قصود الفكر هي الأخرى بحاجة إلى التجربة كي تتمكن من تمرير الوقائع المنتظرة نحو البديهية، ومن ثمة تجد تجربة المعيش أهميتها وضرورتها، فمن دونها تصير كل دلالة ساذجة وغير واضحة. إلى درجة أنه بإمكاننا القول بعدم جدوى البحث عن العنصر الثالث الذي بإمكانه لعب دور الوسيط بين الفكر والعالم[3]. هذا ما عجل إعلان ليفيناس عن ضرورة تلقيه الفينومولوجيا.

وبعد اكتشاف القصدية سار ليفيناس في بداية الأمر على خطى هوسيرل إلى غاية إقدامه على نشر عمله: بخلاف الأخر أو بعيدا عن الماهية. الفترة التي منحت

---

1 Voir Husserl (E): Articles sur la logique (1890-1913) traduit par: English (J) Paris PUF 1995 p. 373-375.

2 Voir Husserl (E): les recherches logiques

3 Bustan (S): Levinas et Husserl; dépasser l'intellectualisme philosophique; revue international de la philosophie 2006. p. 37 n° 235.

له امتياز ما هو عملي تطبيقي على ما هو نظري تأملي. فبفضل القصدية لم يعد مجديا المرور على امتحان نقد المعرفة للتمكن من تحديد الموضوع بما انه تمت فعالية التنسيق القائم بين الفعل القصدي والحدس والتي تقوم بتحديد الموضوع بصورة مباشرة.

لكن على الرغم من ذلك نجد ليفيناس على غرار باقي الفينومولوجيين يوجه اللوم إلى هوسيرل لعدم قدرة فينومولوجيته الذهاب ابعد في بحوثه الفلسفية حول الحياة، ثمة نقص استشعره ليفيناس وبالأخص نقص في التعامل مع قضايا تجربة الحياة والمعيش كما أن هذه التجربة بقيت سجينة أسبقية النظري والذي حال بدوره دون السماح باكتشاف الواقع مثلما هو قائما في غياب الافتراضات. هذا الموقف من هوسيرل منح لليفيناس إمكانية شق طريقه الخاص داخل الفينومولووجيا حيث سار به من فلسفة لا تزال تحتمي بما هو تأملي ونظري (الفلسفة النظرياتية) **théoriste** أو عقلانية **intellectuelle** إلى فلسفة تسمح بإنفلاق وإنبجاس البعد الإتيقي. انطلاقا من هذا الانتقال سينجز ليفيناس نقده للهوسرلية باعتبارها أسست الفينومولوجيا عقلانوية سجنت ذاتها بداخل عالم نظري محاولة منها تصفية الواقع بواسطة التأمل والنظرية[1].

لكن اعتقد انه من الضروري الإشارة إلى أن موقف ليفيناس من الميزة العقلانوية للفينومينولوجية الهوسرلية لم تكن ابدا بدافع رفضها وإنما يجعل من الموقف العقلاني، الطريق الذي يمنح لنا شيء من الاستقلالية ومن حرية فكرية على الرغم من إقرارنا بنقصه من خلال التعامل الضعيف مع القضايا العملية التي تلزمنا بها تجربة الحياة. وعليه فان لا مفر من الموقف النظري باعتباره الأساسي نفسه الذي تقوم عليه العدالة فلكي نكون منصفون يجب أن تحدث موازنة بين الحكم والأفراد هذا ما يقتضي استدعاء الفكرة ولمعرفتنا تم لإحساسنا إلى يتبقى بالمسؤولية[2].

لم تكن مهمة ليفيناس إقامة ايتيقا، وإنما العمل على البحث عن المعنى. ففي واقع الأمر لا يعتقد بوجود فلسفة تكون مبرمجة هو في نظر ليفيناس هو الأول الذي وضع فكرة برنامج للفلسفة مما لا شك فيه بإمكاننا إقامة انطلاقا من فكرة الوجه.

1 Bustan (S): Ibid. p. 39

2 Levinas (E) le temps et l'autre Paris PUF 1979. p. 42.

لان هذا الأخير يقطع بصورة جذرية مع التوجهات الشمولية للفلسفة الحديثة، والتقليدية.

لقد أدرك ليفيناس مثلما اشرنا نقص الفينومولوجيا الهوسرلية التي كانت تعاني منه. إذ حدث أن أغفلت بعض القضايا التي تم إقصاؤها من دائرة التفكير داخل الفلسفة لتقليدية فهي أي الفينومولوجيا الهوسرلية عندما تأسست من منطلق مثالي ترنسندنتالي وكرست بالإضافة إلى ذلك ال"انانة" Solipsisme تكون بهذا التوجه قد ساهمت في الإبقاء على مفاهيم مثل ألآخر الجسد، الرغبة، الوجدانية والأنثوي... إلخ. تنتظر اللحظة المواتية للبدء والتفكير حولها. مما منح بالفعل للفيناص منفذا لتحاليل أصيلة هنا بالذات تكمن وجاهة المشروع الليفيناسي والمتمثل تحديدا في وتطويره، وتفعيله لسؤال الآخر، جاعلا منه سؤالا مركزيا لكونه يحمل القدرة على توسيع العالم.

تكمن إذن مهمة الفلسفة لدى ليفيناس في سعيها لإظهار التوجه الحقيقي للإنسان نحو العالم، المرتبط أساسا بمبدأ الحاجة ومن تم يتمكن من تأسيس إقامته وعلاقته بالعالم والتي تمكنه بدورها من بعد الجوانية التي يمنح له إمكان التصرف والسلوك، مانحا فسحة للآخر ذلك لأنه وفي نظره كل استعمال العالم يتواجد موجها نحو الآخر. فإقامتنا فيه هي في عمومها إقامة لأجل الآخر لا غير. بما أننا مسئولون عنه مسؤولية مطلقة، مسؤوليةتعرف وجودها قبل الغير وقبل المعرفة وليس معهما. وعليه سأكون في اعتقاد ليفيناس مدعوا باستمرار إلى ضرورة فتح مسكني وإقامتي لأجله[1]. فأنا دائم الترقب والانتظار، أنتظر حلوله بيننا، وقدومه. هذه الوضعية هي التي تدشن حقيقة وجودي في العالم.

لكن إقامتنا فيه لا يجب أيدا أن تكون مرتبطة كما جس المكوث والاستقرار وإنما ينبغي أن تكون دائما محكومة بها جس الانسحاب والمغادرة فالآخر لا وطن له لا هوية تحدده انه خارج كل تعيين على الرغم من انه يشكل هو الآخر أنا Moi لكنه أنا من دون هوية هذا ما جعل ليفيناس يتجه إلى القول انه ليس يوجد جهد من دون آخر وربما سيكون هذا الآخر مدركا بفضل جسده ومن تم سنتكون

1 zelinski Agata. Lecture de merleau penty et Levinas ; le corps, le monde, l'autre ; paris PUF 2002. p. 141

فلسفة ليفيناس تفكير الظاهرانية، للتذاوب مدركة انطلاق فقط من جهد متموضع situé متموضع على وجه الخصوص جنسيا ربما كان هذا الأمر منفذا للتوغل إلى البحث في السؤال الأنثوي لدى ليفيناس لأنه (آي الأنثوي) سيكون عنصر محاورته تجديد السؤال العام الخاص ببرانية الآخر **l'extériorité de l'autre** في المرئية، وكأن فكرة الآخر المحض ستكون مجرد عبث من دون ظاهرية[1]

الأنثوي وايتيقا الرغبة

إذ سيغدو معه لدى ليفيناس احد أهم الصور الجذرية لغيرية الآخر le féminin يعتبر الأنثوي الآخر أخر. العبارة التي صيرت المشروع الليفيناسي الفلسفي أصيلا، حيث سيقيم فلسفته التي ترغب في أن تكون حكمة المحبة، وليست محبة الحكمة. الحكمة في خدمة المحبة، وليس العكس ففي الخطاب الايروسي الذي افرد له ليفيناس العديد من أعماله وكان أهمها "الشمولي واللانهائي"، سوف لن نحب موضوعا متماثلا أمامنا، وإنما سنكون أمام محبة وفقط: "فأنا المحبة قبل المحبة ويقينيا أن يكون الأنا منضويا في ذكورة الأنا التي يتم بفضلها وصف الايروس. لكن سيضطر وهو في أوج المحبة التضحية وبفحولته[2]. فأن نحب هدا يعني ان نحب المحبة عينها. المحبة التي يحملها إلي الحبيب، إذ انطلاقا من المحبة وليس انطلاقا من الأنا سيكون ممكنا التأكيد انه وداخل الإيروس يغدو: الـ "لأجل ألآخر باعتباره الأكثر إحالة من "أجل الذات" باختصار يمكننا القول أن لأجل آخر هو لأجلها.

إن أسبقية العلاقة مع الآخر هي بمثابة الموضوع الأساسي الذي إنفتح عليه ليفيناس. فحكمة المحبة هي بمثابة القضية التعريفية التي تعبر عن وجود اقتضاء رئيسي ووجيه. يتمثل تحديدا في أن الفلسفة إدا كانت تسعى من أجل فهم إنسانية الإنسان، عليها أن تهب نفسها ومن دون حياء لخدمة اللغز، الذي يعكسه الآخر.

---

1 Duboste Mathieu: Féminin et phénoménalité selon Emmanuelle Levinas revue les études philosophiques 2006. p. 37 n° 334

2 Levinas (E): Totalité et infini. Essai sur l'extériorité, Nijhoff la Haye 1961. p. 248

الذي يرفض القبول بشيء آخر والاكتفاء به إذا لم يحضر كـــرم ال" عينـــه"لأجل الآخر. ذلك لان الامتنان هو بمثابة عودة الحركة مجددا إلى أصلها[1]. ففـــي عملـــه الشمولي واللانهائي، العمل الذي أحدث ليفيناس منعطفه الأساسي القائم على وجه الخصوص بمغادرة ارض الفينومولوجيا التاريخية. حيث يظهر الأنثـــوي لأول مـــرة كتحفظ على الحضور ففي الأنثوي يحدث نوع من الاكتمـــال وإنجـــاز التفريـــق كسكنى. ليظهر فيما بعد داخل العلاقة الايروتيكية. ومن ثمة سيتخذ الأنثوي لنفسه زمنين: زمن الإقامة والسكنى وزمن الرغبة أو الايروس. إذ تجد فينومولوجيا هـــذا الأخير نفسها ممتزجة مع الأنثوي. ليحدث من خلاله ليفيناس قطعا مع التقليد الذي يضع الفرد سببا وأساسا للايروس، فالتحفظ على الحضور يضم كـــل إمكانيـــات العلاقة الترنسندنتالية مع الآخر. إن الأنثوي باعتباره التباسا لن يكون إلا اختراقـــا مبتعدا عن الوجه والذي يمثله في شخصه داخل التعبير. الأنثوي بإفراطه في الرفـــع من وزن ماديته الفائقة يحدث تشويها للوجه.

طبعا سوف لن يبقى الأنثوي مدركا دائما انطلاقا من إحالتـــه إلى الوجـــه، دلك. لأن الآخر يحمل دائما المفاجئة إذ سيكون ممكنا تفكير الترسندنتالية بكيفيـــة جذرية داخل الايروس. إن ليفيناس لم ينجز تأويلا للوغوس باعتباره مجرد شـــهوة ولذة، لكونه لا يعكس الرغبة لحظتها سيمارس الآخر من خلال الإيروس انفلاتـــه وانسحابه الدائمين، مقاوما كل رغبة في التملك أو كل وعي مثل هذا التعالي يجعله يتميز تحديدا كآخر، كغيرية. وسوف لن تعرف اكتمالهـــا إلا بواســـطة الجســـد وآلياته[2].

إن الآخر هنا وباعتباره آخر لن يكون موضوعا بحيث نصيره ملكـــا لنـــا أو دلك الذي قد يغدو نحن nous. وإنما يفضل الانســـحاب إلى حيـــث الالتبـــاس والغموض، رافضا التوغل بداخل عالم النور لأنه عـــالم حكمتـــه وهيمنـــة عليـــه الثنائيات الانطولوجية. الأهم في الأنثوي لا يكمن في مدى امتناعه عـــن الفهـــم.

---

1 Poirié (J-F): Emmanuel Levinas, essais et entretiens, Paris Acte de sud 1996 p. 58

2 Levinas (E): Carnet de captivité, écrit sur la captivité, œuvre I, Grasset-IMEC. 2009 p. 117.

وإنما باعتبار نمط وجوده يعتمد على التعرية أمام النور. فالأنثوي يقول ليفيناس حدث في الوجود مختلف تماما عن ذلك الخاص بالترنسندنتالية المكانية، أو الخاص بالتعبيرية اللذان كثيرا ما يتجهان صوب النور. إن الأنثوي فرار من النور. والكيفية الوحيدة التي من خلالها سيعرف الأنثوي وجوده هو قبوله بالتخفي والتستر "إن غيرية الأنثوي لا تعتمد أبدا على مجرد برانية الموضوع. ذلك لأنها لا تعرف تمامها ولا اكتمالها بفضل تعارض الإرادات، وإنما تعتمد لأجل دلك على الانسحاب بعيدا حيث ألهناك. إنها حركة معارضة لحركة الوعي إذ كثيرا ما تفضل هذه الأخيرة المكوث والاستقرار في ألهنا حيث النور. لكن انسحابها لا يعني أبدا إقامتها أو تواجدها في اللاوعي أو في أل" فو- وعي" ولا أرى يتابع ليفيناس: إمكان الآخر إلا في منحه ميزة اللغز **mystère**[1]. فقط عندما نحاول إظهار ما يختلف حوله الإيروس من رغبة في التملك وميلا زائدا نحو السلطة سيكون التواصل لحظتها مع الإيروس ممكنا، ذلك لأنه لن يكون أبدا صراعا، ولا صداما ولا معرفة وإنما يجب الاعتراف بمكانته الاستثنائية بين العلاقات. فهو يمثل العلاقة مع الغير مع اللغز أي مع المستقبل مع الطارئ. ذلك الذي لن يكون أبدا متواجدا في العالم حينما يكون كل شيء قائما في الهنا. إنها القرابة **filialité** إنها الآخر. ولن تكون العلاقة مع الآخر بدورها محكومة هي الأخرى بالمعرفي بحيث تتمكن من تحقيق بصورة أصيلة انسحابا من الوجود. يرى ليفيناس أنها أكثر إلغازا، فهي تعكس العلاقة مع الآخر عندما يكون هدا الأخير وبصورة جذرية آخرا. أي أنها لا يحصل لها التواجد إلا لحظة تجدر الآخر وحيث يكون بطريقة ما مجرد الأنا **.Moi**

وعليه يمكننا القول أن القرابة هي آخر -أنا **l'autre le moi** فالابن يكون دائما بمثابة التعدد الامكاني لأبيه. الإمكانات التي تبدو مستحيلة بالنسبة إلى الأب. فالأنثوي هو قبل كل شيء تعدد في الأوجه أوجه قادرة على أن تمركز بين الجوانب الأساسية للظاهراتية، ممثلة في الالتباس، الغموض والالغازية وتلميح إلى الآخر بداخل "عينه". يجعل إذن ليفيناس من الأنثوي وجها للغيرية بامتياز، المناسبة إلى جانب وجه اللغة والطفل، فانطلاقا من الجسد وبواسطة جسدها سيكون الآخر

1 Levinas (e): temps et l'autre op cit, p. 78-79-81.

متلقيا. بمعنى آخر يمكن القول أن كل علاقة مع الآخر مؤصلة جنسيا[1] وعليه سوف يتعذر علينا انجاز أسئلة حول الأنثوي إلا إذا قمنا بنقله وحمله إلى حيث فكر الظاهراتية عموما، ومن تم فان الاختلاف الجنسي يؤسس بدوره عنصرا مناسبا للتفكير الليفيناسي والذي يسمح بمعاودة طرح سؤال التجلي واللاتجلي.

غالبا ما تم النظر فلسفيا إلى المرأة **femme** من موقع سلبي passivité هذا ما نجده مثلا عند أرسطو عندما حددها بأنها تعكس السطحية والسذاجة ingénuité. لكن الملفت للانتباه أننا وتحت ضغط التحولات السوسيو تاريخية الكبرى المميزة للقرن السابق حدث نوع من الانفتاح على معاودة التفكير وبكيفيات مختلفة العديد من القضايا بشيء من العمق والأصالة. فعندما توجه ليفيناس نحو تفكير الأنثوي انطلاقا من نموذج العلاقة الايروتيكية كان هدفه من وراء ذلك القيام بتحديد دلالة الأنثوي بصورة ايتيقية. فالمرأة لدى ليفيناس هي موجود يرغب فيه الرجل، والذي كلما اقترب منه ابتعد وفر، مفضلا الإقامة حيث المسافة. من ثمة ستكون الرغبة في المرأة رغبة مؤجلة الإشباع والتحقق. وهذا ما يعكس بالضبط انطولوجيتها. أنها الثراء والعوز في أن معا.

لو حصل أن تحققت الرغبة، ووجدت اكتمالها وتجسيدها في المتعة، فانه سيصبح الأنا أنانيا من دون إحالة إلى الآخر وسيكون وحيدا من دون وحدة **solitude**. في حين لا تعرف الرغبة المصير ذاته لأنها حركة نحو الآخر وليست حركة نحو الانعزال والابتعاد والفرار منه. الآمر لا يتعلق باقتضاء مغادرة إقامته، لكن يمكننا التساؤل عن السبب الذي جعل ليفيناس يكتب الرغبة désir بالحرف البارز "D". أن الرغبة التي يقصدها ليفيناس هي رغبة ميتافيزيقية رغبة لا مرئية، قائمة بعيدة عم نرغب فيه أو نود تحققه.. رغبة لا تغلق الرغبة الميتافيزيقية، وإنما تحضر بداخلها. هكذا تبدو إدا رغبة متعذرة الإشباع **d. inassouvissable**.[2]

المرأة لدى ليفيناس موجود متعدد الأشكال **polymorphe**. لم يجد في تعدده هذا ما يمنعه من الظفر ببعض أبعادها جاعلا منها موضوعا للتفكير، فبقدر ما تكون العشيقة **amante** تكون بالقدر نفسه الغاوية **tentatrice**. فهي انفتاح جدري

1 Dubost (M): Op.cit. p. 319.

2 4Poiré (J-F: Emmanuelle Levinas, Ibid. p. 7

على الغيرية، انفتاح خفي، وسري. ثم هي أيضا انفتاح صريح على المستقبل لكنها بموازاة ذلك هي وجه بلا تعبير، بلا ملامح، وجه لا مادي. هذا ما يدعو باستمرار إلى احترامها المرأة من هذا المنطلق هي نموذج الحساسية السلبية، صورة الأمومة، لكنها أيضا صورة المكيدة والإعجاب والإغراء العشقي[1].

لا تعرف الغيرية الايروتيكية انغلاقا، ولن تكون بالنسبة إلى الموجود الذكري إلا الآخر. لأنها من طبيعة مختلفة عن طبيعته. ففي العلاقة الايروتيكية لا يرتبط الآمر أبدا بأخر يضاف إلى آخر، وإنما هي غيرية مضافة إلى العلاقة الايروتيكية، إذ عندما يحجب الأنثوي جسده يغدو رائيا ومرئيا في الآن معا. ولا يمكن اكتشاف جسده إلا عبر الكيفية التي يكتب ويرسم حجبه. وحده الأنثوي بإمكانه منحنا بوعي فرصة رؤية جسده ويمنعنا عنه في أن معا. إن الجسد الأنثوي رمز فائق، حيث يوجد العديد من الطرق التي تمارس من خلالها الحجب، يغدو لحظتها تجليه من لا تجليه. من البداية نجد المرأة تعلن عن نفسها بأنها موجود مختلف مغاير لا يفضل الإقامة حيث المطابقة والهوية، وتشق باستمرار ممرات سيرها المحايث لما هو ترنسندنتالي، ودلك من خلال عناصر لاواعية ولا واقعية إنها تنتسب إلى الواقع من موقع استعار، هذا ما أهلها إلى نسج غيرية أنثوية **altérité féminin**، غيرية جذرية، تتكلم وكلامها لغة إنسية **Humain** صوت ينكتب، يرفض حمل عنفه وتوحشه لأنها التوحش عينه.

يعكس الأنثوي الغيرية الجذرية التي أقدم ليفيناس على ذكرها في عمله الصادر سنة **1947** بعنوان من الوجود إلى الموجود حيث سيقيم الايروس نموذج اللقاء بالآخر كأخر. فإذا كان هذا الأخير هو قبل كل شيء أنثوي فلأن العملية الايروتيكية تظهر وفق مزيج من التقارب والمسافة. المرأة حسب ليفيناس: هي وبصورة محددة العشيقة، إنها الصورة الأولى للغيرية.

من هذا المنطلق يمكننا القول أنه بقدر ما تعكس العلاقة الايروتيكية لحظة الغبطة تعكس في الوقت ذاته لحظة الخيبة. فهي غبطة لأنها تجد بداخلها المتعة والشهوة، ولأنها ترسم في الأفق علاقة مع الاختلاف. وهي خيبة لان تداخل الآفاق

1 Dubost (M): Op cit p. 318.

يظهر مستحيلا ومتعذر من فرط الرغبة فيها"[1]. الأنثوي هو الصورة العينية والحسية للغيرية. يتعلق الأمر هنا بتحليل وضعيات ومواقف عينية، حيث تصير الغيرية أكثر وضوحا مما هي عليه في العلاقة الاجتماعية. إذ نجدها تحافظ على بقائها غامضة ومغلق عليها، هذا يعني انه تمت غيريات تكون أكثر أو أقل حسية. وسيغدو الأنثوي أكثر بروزا، إنه الآخر الذي أشعر وأحسه به في العلاقة الايروتيكية كأخر، الذي يحمل افتراضيا الطفولة. وعليه فإن الأنثوي هو هذا الآخر باعتباره نموذجا للغيرية، لكونها صارت وفي أحسن الحالات مدركة. لكن يبدو وضروريا القول هنا أننا أمام حساسية تفضل الانفلات والانسحاب من النور، أو من كل ما يمكن أن يحملها ويسير بها إلى الـ "عينه" ونحو الذات. ومن تم سيكون الأمر لدى ليفيناس مرتبط باقتضاء إيجاد نموذج من الأثر قادر على تحديد النمدجة الحسية باعتباره متعذر عن التحديد.

يفضل ليفيناس إنهاء عمله "الشمولي واللانهائي" بالإعلان انه سيكون ممكنا وعبر الزمان: مغادرة الفضاء النوئتيكي الإغريقي، فإذا صار الزمان مؤسسا للكائن، فان المعرفة الشاملة ستجعل منه متعذر الإمكان. من نتائجه جعل المعرفة نسبية بحيث سيغدو لا-ممكنا الجدل على النمط الهيغلي. وبالتالي يتعين الزمان لدى ليفيناس انطلاقا من الجناسة **sexualité** لأنها تمكنت من الانفلات والخروج من الزمان المباشر، مفضلة الانفتاح على الزمان المتعدد. ومن تم التوجه نحو انجاز اللانهائي، سيسمح لنا هدا النوع من الانتقال بموازاة ذلك الانفتاح على موضوع الأنثوي"[2]. إذ بمجرد ما يحصل اللقاء مع الآخر، ينفتح سطح المحبة والخصوبة اللذان سارا بنا نحو دواتنا بعيدا عن الموت، لتفتح المحبة بدورها على لانهائية الزمان. فالعلاقة بين البشر أي الصداقة والحب إذا أردنا التحديد بدقة. تتأسس حسب تعبير ليفيناس على ثنائية لا تقهر بين الكائنات: فالحب ليس علاقة تملك وخضوع ولا علاقة سلطة. ولا يلعب كل من الانصهار والاتحاد والاشتراك والمعرفة في إطاره أي دور. ففي الحب لا يمكن معرفة الأخر ولا الإمساك بحقيقته. وإذا حاولنا امتلاك

1 Levinas (E) Ibid. p. 78

2 Bailhache (G). Le sujet chez Emmanuel Levinas fragilité et subjectivité, Paris PUF 1994 p. 136

المحبوب أو الاتحاد به فإننا سنعجل بالقضاء عليه، وتحديدا بالقضاء على اختلافه الذي يشكل جوهر وجود ذاته. ففي العلاقة الايروتيكية يجب أن يظل الآخر غريبا.

يقول ليفيناس: بان العلاقة مع الآخر هي غياب الآخر ذاته. إن المحبة بالنسبة إليه فقد وضياع، مسافة وتفريق. صمت يوجد العشيقة خارج الحب، لان الحب هو فراغ ما لا يمكن الإمساك آو الظفر به. فالآخر سواء كان قريبا أو بعيدا فانه ينقد على الدوام كينونة الأنا انه ملاذ وملجئ مأوى خلاصه[1]. لكن لا يوجد الايروس إذا لم نكن محكومون بإفراط في المجنون، أن نقيم بداخل السواد وغموض الايروس. تظهر لا نهائية الجناسة والإفراط فيها في عمق الايروس، وتتجلى تحديدا مع الطفل حيث ستتعرف على اكتمالها. من ثمة لن يحدث اللانهائية تمنع كل انغلاق قد يقود إلى تدمير الأخر أو إلى فقد أو ضياع الذات[2].

لا يتوجه الآخر نحو الحب إلا لحظة ضعفه وبؤسه، البؤس الذي يمثل ميزة غيرية الآخر نفسها. وتكمن حركة المحبة والملامسة **la caresse** والملاحظة القادرة وحدها على السمو بالجناسة لكونها لا تمثل قصدية الانكشاف وإنما يجب السير نحو اللامرئية. وإن تعبير المحبة هو أيضا معاناة، ولأن الآخر لا يستطيع قول كل شيء لكونه لا يمتلك سلطة القول، يجد نفسه يعيش مجاعة في التعبير. يسحب من صورته الخالصة والنقية الملامسة، وان هده الأخيرة هي نزع واقتلاع للطهر والنقاء والعفة. لكن ما الذي ستكون عليه الذات مع هذه المغامرة المنجزة من طرف الملامسة؟ ما مصير الذات في علاقتها بالحبيب؟

لم يعد النور سببا لوجود الأنا وإنما الحنان **L'attendrissement** الشهوة التي تأبى الوقوف أمام الرغبة. وإنما هي الرغبة عينها، إنها ما يختفي ويتوارى، في الوقت الذي تكون فيه مكتشفة. ثمة عنف ينزل بحياء النظرات إلى الشهوة الماجنة لأنها باختصار تفضل ألا تكون مرئية إنها الممتنع عن الرؤية، صامتة لا تتكلم ووحده الضحك والسخرية بإمكانهما ترجمة كلام الشهوة التي تكتمل لا تكشف الشهوة

1 ليفيناس: إدموند جابيس أسئلة الكتابة أو حوار الفلسفة ب والأدب ترجمة إ-كثير والخطابي (ع) منشورات ما بعد الحداثة الطبعة الأولى 2003. ص 23-24.

2 Bailhach (G): Ibid p 139.

عن أنا عميق بعيدا عن الوجه، وإنما تكشف عن الطفل. لان الأنا موجود داخل الطفل الآخر.

إن الطفل هو الأنا القريب من الذات ولا يمكن فهم هذه الرؤية وفق القوانين وقواعد المنطق الصوري ذلك لان من غير الممكن إدراجها أو إدخالها ضمن المشروع المقولات لكونها لا تتوقف فقط على حضور وتماثل الأنا وإنما على اللقاء بالآخر باعتباره أنثوية[1].

دعم ليفيناس فكرة استرجاع صورة الآخر بواسطة الأنثوي، من خلال إقدامه على تحليل فكرة المنزل **maison** المنزل باعتباره مكان الراحة والاستراحة، المكان الذي تتواجد فيه الذات على الرغم الاعتراضات والضغوطات الخارجية. لان الإنسان عندما يكون خارجا يصير عرضة للنور الشديد، الذي قد يعيق النظر والرؤية، وقد يفقد بصره. فالمنزل هو مكان الراحة والتمتع لكن مع ذلك هو المكان الذي من خلاله تسلل الغيرية.

سيتم استقبال الوجه بصورة أصيلة يداخل سماحة وجه الأنثوي، أو هي الموجود المنفصل القادر على استقباله وبفضله يسكن وبداخل إقامته يكتمل التفريف. إن سكنى وحميمة الإقامة بإمكانهما جعل تفريق الموجود البشري يفترض هكذا أولى التجليات للآخر[2]. تمثل هده اللحظة الاستقبال الأول، وهو كذلك لأنه يحتفظ ببقائه بجانب الـ "عينه" وبجانب الانطولوجي. ولأن هذا الاستقبال لا يعكس في واقع الأمر إلا بدءا فستغدو المرأة هي المنزل. فالسكنى تعني أن يكون في منزلك شيء آخر غير ذاتك. إن العلاقة بالأرض كلقاء يحمل علاقة جذرية بين اللامس والملموس، فإذا كان المكان هو سلفا لقاء مع الغيرية هذا يعني أن الآخر غير بعيد وانه سيكون محتفظ به من قبل الأنثوي عبر استقباله بداخل المنزل. إن الأنثوي يرجع إذن إلى تجربة اللقاء كواحدة من أولى صور الغيرية، كرقة وعذوبة في ذاتها. للمرأة القدرة على أن تجعل العالم مسكونا، وقابلا للسكنى. ولن تكون مجرد عشيقة وإنما المضيفة **l'hôte**. إنها الرقة التي تجعل العالم اقل صرامة وعنفا، تسمح بإبرام نوع من القرابة مع الأشياء. إن كل قرابة تفرض

1 Bailhach (G): Ibid p. 140
2 Levinas (E): Ibid p. 161

سلفا أن تكون قد تم استقبالها وهذا ما يعني أنها متلقية بواسطة هذا ما يعكس صورة أنوثة السكنى.

المرأة هي حفاوة الاستقبال بداخل المنزل، وهي بالإضافة إلى ذلك مكان للسكنى والإقامة. هذا ما يجعلنا نؤكد أن المرآة تتموقع "بين بين" entre deux الأنثوي برزخي الدلالة، أنها الهدوء والرقة، أنها الأخر حيث يكون الحضور خفية وغيابا[1]. يتخطى الحضور بهدوء داخل الغياب، مم يجعلنا نقع في توتر القرار يصعب علينا الحسم ما إن كان غيابا أو حضورا، إنها البينية. يمنح لنا الأنثوي إذا ومن خلال المرأة وجها يسير ويتوجه بعيدا عن الوجه. فوجه الحبيب لا يعبر أبدا عن السر الذي يمتنع الايروس التعبير عنه، فحضور لا- دلالية الوجه، أو الإحالة إلى ال"لا-دلالية" هي حسب ليفيناس حدث اصلي يعكس الجمال الأنثوي. ومن تم فان المرأة تنجز اختزالا اقتصاديا للوجه على ما يعكس غوايتها.

تدعون المرأة من هذا المنطلق إلى الكف عن النظر إلى الوجه الآخر، والجعل منه مجرد منبع رغباتنا الخاصة. إن رؤيتنا إلى الوجه الآخر هو بمثابة البحث عن الرغبة المفقودة. فالايروس يمثل هنا حالة من التوافق بين اثنين من دون ثالث، ومن دون لغة يمنع عنا الاستماع أو الاصغاء إلى أصوات أخرى خارجية. وحدها الخصوبة بإمكانها الكشف عن الصورة الثالثة للأنثوي كتلك المتعلقة بصورة الأم، لان الأم هي المرأة التي يتم تجاوزها في الآخر، وتحديدا تجاوزها من طرف الطفل. أي في شخص آخر أو لنقل أيضا تدفعنا الخصوبة في المستقبل نحو إكتشاف منفذا آخر للأنثوي. وهو ومنفذ الأم المتجاوزة داخل الآخر من خلال الطفل.

الخصوبة هي مستقبل الأنثوي لأنها منح إمكان الكشف عن هذا الآخر الذي يحصل أن يتم من خلاله مجاورة الأم لذاتها فالأم تنخرط ذاتها عبر الطفولة ولا يعرف ايروس تغييره الفائق إلا بواسطة الخصوبة باعتبارها قربان متعذر[2]. فالأم تعاني من وتقاسي الأمرين فنحن نعلم أن لحظة الإنجاب التي تعرفها الأم هي بمثابة القطر معاناتها وآلامها بالتالي فهي تجسد الحساسية في اطلاقيتها محددة كسلبية جذرية كعرض شامل للآخر وعليه يقول ليفيناس المرأة هي الجسد المتألم الآخر أنها

1 Levinas (E): Ibid p. 299
2 Dubost: (M) Ibid p. 328

صورة الحساسية ويظهر ليفيناس هذا التنقل من الأنثوي إلى الأمومة من خلال عمله "بخلاف الذي يوجد أو بعيدا عن الماهية" إذ ستتوقف المرأة عندها عن تمثيل ذاتهـــا. لقد صارت جريحة تعاني لأجل الآخر.

وعليه إذا كانت المرأة منـــزل، يوحد السكنى والإقامة. فإن الأم والخصـــوبة يفتحان المستقبل والصيرورة. وستبقى المضيفة تعكس وجه الثابت الخاص بطـــور قبل- الايتيقا. وتوجد العشيقة بدورها طور الايتيقا، في حين توجد الأم لنفســـها المستقبل. ويغدو جسدها جسد المستقبل، وحده جسدها يكون الصيرورة. هذا ما يعكس في نظر جون لوك مايرون **Marion (J-L)** بقاء الأنثوي مقولة لا محـــددة، وغير مشخصة لدى ليفيناس.

لا يضعني الإيروسي يقول ماريون: "في علاقة مع المرأة أو الرجـــل وانمـــا في علاقة مع إمكانية الطفل (الطفولة)[1]. إن الأمر بالنسبة إلى ليفيناس لا يتوقف عنـــد حدود تفكير ماهية المرأة، وإنما البحث عن الصور العينة **concrètes** لتمثل الآخر. فالأنثوي يحيلني باستمرار إلى الآخر بقدر ما أتموقع جنسيا.

1 Dubost: (M) Ibid p. 328